الغياب و ٥١ يوما من الحرب

كُنت أحدثك كل شيء، الأشياء التي حدثت، والتي تحدث، ما أحلم بحدوثه، وما لن يحدث أبداً.. قلت لكِ يوماً: أنتِ تُشبهين قطعة الأرض التي كانت لجدي قبل أن تستولي عليها المستوطنة القريبة بالقوة، لكنني لا أريد لنا نهاية تشبهها، أريد أن نبقى في البدايات، كأرض جدي وهي تطعمه القمح والسمسم والفقوس والحمص، وهي تمده بالنّفَس النقي والهواء الأول.

قاطعتني: سأعترف لك بشيء قد لا تقول بعده شيئاً، كنت أشعر معك بالصداقة والفضول والأمان والرغبة، بكل شيء إلا الحب! لم يكن الأمر بيدي، فقصة حبي القديمة عادت، عاد الشاب الأسمر الطويل الذي أحببته أول مرة، عمر حبنا تسع سنوات.

ساد صمت رهيب بيننا..

شَردتُ في أول حب حصل لي أيضاً، وكانت صبية سمراء طويلة، حدث ذلك قبل سبع سنوات، لكن الفرق بيننا أنها لم تعد، كما فعل أسمرك الطويل!

كنتِ تعتذرين بتطليعاتك، وتحاولين الكلام، تودين لو يسقط بيننا فنجان القهوة الذي وضعه النادل أمامي، أو كوب الليمون أمامك، لينكسر هذا الصمت الكبير، الواقع بيننا.

لم أخرج من فكرة أنني أحبك، وأنك موجودة في حياتي، وتسمعينني، أنتِ معي، هذا كل ما أعرفه وعشته، رغم أنني لاحظت منذ البدء أنّ شيئاً غير طبيعي يحدث بيننا، لكنني كُنت أطرد ذلك الإحساس اللعين، وأصرخ به وأنا وحدي خاصة ليلاً: هذا كل ما أملكه، انصرف عني! لكن، كم كان صادقاً.

في أيلول، الشهر المُقيت على الأقل بالنسبة لي ولمن أعرفهم جيدا، بدأت رسائلك النصية تقل بشكلٍ واضح، وبدا شَبحُ الرحيل يخيم على قصتنا، إنها نهاية أعرفها جيداً، سبق وقابلتها في حزيران ٢٠١٠، حين كُنتُ صباح وعصر ومساء سناء، قبل أن تصبح قصتنا في آخر أسابيعها: روح صلي الجمعة.

من عشرات الرسائل النصية اليومية، إلى رسالة أو اثنتين في الأسبوع، من حوارات ملأى بالحديث عن المستقبل والحب والأمان، إلى محادثات اطمئنان جافة تحدث بين كل زميلين في وظيفة حكومية.

الذين نجري وراءهم لن يقعوا في حبنا، الحب الجيد هو الذي نمشي إليه بهدوء؛ حتى أن هذا يُفيد لحظة التوقف والانسحاب، فالفرق كبير بين أن تصطدم وأنت تجري، وبين أن تصطدم وأنت تمشي على مهل.

كما في الضوء أيضاً، جرب أن تُشعل غرفتك مرة واحدة بإضاءة كثيفة، وجرب أن تضيئها قليلاً، الأولى تؤذي بصرك، والثانية تُريحه.

فالحب سلم، درجة درجة أيها القلب!

هُناكَ خَسَارات تقهرُكَ، تُصْمتُك، تُعيدُك وحيداً لكنّكَ انتصرتَ فيها، انتصَرتَ عليك، على كلِ ما فيك حينَ كنتَ تعيشُ على شعورٍ داخِلِي وحيد: ليس بإمكانِي الحياة دونَه. تَقَبُلُكَ لِلخسارة، انتصار! الخسارة التي لا تُغيِّرك لتُصبحَ شريراً. هذه الخسارات التي تأتي وتذهب وتتبدّل مَقاساتُها، فتُصبح جزءاً منْ الحياة، لا يجوزُ لك أنْ تصرُخ دوماً: خَسِرْت. جرّبْ مرّةً أنْ تقول رَبِحت لأنّي خَسِرتْ! عِشْ التجرُبة منْ زاوية مُعاكِسة تماماً، ارسم خساراتك، اكتبها، غنِ لها، اصنع منها شيئاً غير البكاء.

قررت أن أستمر بالكتابة إليك، إننا نكتب لمن يفهمنا، وإن رحل!

في غيابك، تغير شكل الوطن، وصار بيننا شهداء جدد.

في الحروب تحتاج الناس لبعضها، لكننا اختلفنا قبل الحرب بأسابيع، فعشنا أجواءها غريبين، لا أدري ماذا كنتِ تصنعين فيها، واثق من أنك انتظرتني لأكتب لكِ، ولم أكتب.

قلت: لربما تعيدنا الحرب. بدأت الحرب، سارت مسافة ٥١ يوما، ولم نعد.

في الحرب كتبتُ لكِ ما التقطتهُ عيني وضميري وواجبي. حين تنتهي الحرب الكبيرة وتعود الناس إلى حروبها الصغيرة، يعود كلٌ مِنّا إلى حربه الخاصة، إلى صراعاته وصداعه..

حين تنتهي الحرب تصبح الحياة والمزاج والمواقف شخصية جداً.

جرح غزة العميق تَفَهَ جراحاتنا العادية، وحين نام أفاقت مجدداً،

لطالما تساءلت بماذا يفكر الانسان وقت الخوف؟ حين يسمع صوت الطائرة القريبة؟ حين تسقط القذيفة؟ أو حين يرى الموت بأمَّ عينيه؟ أهله، أحبابه، بيته، ديونه، عمله، أحلامه...

وحده التساؤل أخذني إلى شيء آخر، إلى ذكرياته وحنينه. ثمة صور عائلية وصور زوجية، صور طفولة صارت رماداً، محابس خطوبة وورد بين ثنايا الكتب المهداة والشموع، قطط ودببة قطنية، أساور فضة، عقود من الخرز، أقلام حبر عادية وفاخرة...

كل الأشياء الرومانسية المتعاقبة ذكرى بعد ذكرى مزقتها القذيفة الطارئة.

مشاهد من الحرب

مشهد

القذائف تستهدف أطفال غزة، لا تُريد لهم أن يكبروا، لا تريد لهم أن يصبحوا مقاتلين، ولا حتى أطفالاً يلعبون بالرمل والبحر.
لا تريد أن يصبح لهم ذاكرة، ذاكرة غضب، فتقتلهم فراشات، وأحلاماً، تقتلهم صغاراً، تقتلهم صفحاتٍ بيضاء.
ولا تدري أنها تُحوّل ذاكرة كل شبرٍ في غزة إلى لونين فقط، لونٍ أحمر سيطلع بوجهها، ولونٍ أسود سيطلع بوجه العالم.

مشهد

نور حمد، الطفل الذي بثت صورته قناة الجزيرة وكان نائما على سرير مستشفى الشفاء، وابن عمه كِنان الذي كان في حالة صحوٍ، صحو من إصابة جسده لا روحه!
نور الذي فقد والديه. -يُتمٌ مُبكر-؛ وكنان الذي فقد أمه -يُتمٌ لا يُطاق-
من سيقنعهما غداً بحل الدولتين والسلام؟ وأن إسرائيل جارة؟ إن وافقت أي قيادة فلسطينية على السلام مع إسرائيل علينا أن نُبقي المعركة معركة ثأر شخصي.
من قلع عين أبي أقلع عينه وعين أبيه، من جرح ضفائر أمي أجرح نصف أمه.

مشهد

على شاشة فلسطين اليوم: شاب صغير يُقَبِل والده الشهيد على سرير في مشفى الشفاء ويبكي، الطبيب يحاول ابعاد الشاب ويقوم بتغطية الجثمان، الشاب يبكي ويرفع الغطاء، الطبيب يبعد الشاب مجدداً ويغطي الجثمان.
اتركه أيها الطبيب إنه والده، فليقبله وليلمس وجهه الموشح بالدم والغبار وليعانقه.
اتركه أيها الطبيب إنه والده، والده، والده الذي صار الآن شهيداً.

مشهد

خبأتُ الطفل خلف ظهري، وقلتُ للطائرة: اقصفي الآن، اضربي الآن.
لم ترنا بعينها الوقحة، لم أعد أراها، سقط ظهري، سقط الطفل، ربما سقط الصاروخ أسفل كتفي.
أعتذر يا ابني مُجدداً على أمنيات كثيرة لم تحدث لك، آخرها: سآخذك غداً للبحر بتمام الواحدة ظُهراً. إن استيقظت اذهب وحدك، أما أنا فلا أظنُ بعد هذا الكم المخيف من الغبار أني سأنجو.
أنتَ حاول، حاول... ألا تَمُت الآن.

مشهد

قبل الحرب بأعوام كثيرة، دعوت ربي: لم نخرج فسحةً واحده يا الله، وبقيت أدعو، أدعو، أدعو...
ليلاً.. أخذنا شهداء.

مشهد

لطالما كررتُ لها: نريدُ بيتاً أكبر، نُريد فضاءً شاسعاً، البيت يخنقنا يا أمي، كل النوافذ صغيرة...
اليوم.. قصفوا البيت!
دخل كل هواء العالم إلى قلبي، وصارت السماء مُلكي.

مشهد

كان الطفل يجلس على ركبة جده، يمتطي ظهره، يسرق العقال عن رأسه، يلسع عباءته من الخلف، يشدُ عصاه، يُغضبه، كان الطفل والجد يلعبان، استشهد الطفل مرةً واحدة، حرموا الجد من اللعب.

مشهد

اقصف كل المدارس، حطّم مقاعد الدراسة، وانثر دمنا على المصاطب، لن تقتل الفقرة الصباحية، لن تلوي ذراع سماعة الساحة.
ستظل تردد «فدائي.. فدائي»

مشهد

الأرجوحة تأخذ الطفل للوراء، تدفعه للأعلى، وتكررها، يبتسم الطفل، يخاف قليلاً، الطفل يلهو، ترفعه للأعلى فيصيب نظره السماء.
تسقط القذيفة، فيذهب الطفل صوب نظرته الأخيرة
إلى السماء.

مشهد

لو صِرتُ أماً لخمس دقائق، لوقفت فوق رأس طفلي الذي صار شهيداً في خمس ثوان، وصرخت بوجه الطبيب: انزع لي يده، أريد شيئاً منه، ضع لعبته الصغيرة بدلاً منها، لن أخبر أحداً بغشك!
أعطني إياه لعشر دقائق لأرضعه آخر مرة.
دعهُ ينطق اسمي، إنه يعرفه جيداً، ويعرفني، إنه ابني! ألا تفهم معنى ابني.
ثم إني اشتريت له ملابس العيد، لِمَ تُصر أنت على الأبيض الكامل؟ اشتريت له قميصاً بُنياً، وبنطالاً أزرق على مقاسه تماماً، هذا الأبيض أكبر منه، أوسع منه، لم يشتهه يوماً، يخيفني عليه.

مشهد

يظهر رجل في بدايات الأربعينيات يحمل طفلاً في حدود السادسة من عمره، يُقبله ويبكيه بعد أن لفّ جسده الصغير بعلم فلسطين، آثار القذيفة ظاهرة على جبهته.

لو كُنت راوياً جيداً؛ لاخترتُ أقسى صورة في الحرب، على غلافٍ شديد البياض، ودون حاجة لاسمي، أو لتاريخ الصورة، وأسماء من فيها وأعمارهم. فقط ورقتين خفيفتين؛ لتنثر الريح الكتاب لكل الأرض.

ولا حاجة لي أن أتابع ما سيقوله العالم، أو كيف سأبدو في وجه الناقد الذي يتربص بي منذ زمنٍ بعيد.

ولن أنسقه، سأضع الصورة بكل وضوحها الأليم.

ربما تكون مائلة قليلاً، إلى جهة قلب القارئ أو ضميره، فاعذروني على هذا الخطأ الفني منذ الآن.

كتابي فقط: صورة. إن لم يفهمها العالم لا حاجة لأن أكتب سطراً واحداً بعدها.

ولاخترتك أنت، أيها الأب الموشح بالفقر والغبار تحمل طفلك إلى قبره الهادئ، وتقبله قبلتك الأخيرة.

مشهد

وكأنّ القذيفة تريد أن تقول لنا: امشوا نفراً نفراً وطفلاً طفلاً، وصلوا واحداً واحداً، فلن نقتلكم بعد الآن فُرادى، فالقذيفة التي تُصيب شخصاً وحده ليست منا.

مشهد

آن للأطفال الذاهبين إلى الله أن يصعدوا واحداً واحداً.
نحبهم شهداء، ونتمنى لهم، لكن ألا يذهبوا جميعاً دفعةً واحده.
وهكذا بلا صراخ! ماذا نفعل بالبيت الكبير؟ وهذا الهدوء المُفزع...

مشهد

في معركة الرجال، تبحث إسرائيل عن الأطفال، تقتلهم، تنتقم منهم، تستقوي على أجسادهم الرشيقة والناعمة، تطرب لأشلائهم، ويقول الجند لبعضهم: مَحَقناهم.. انتصرنا.
ولا تدري بعد أنّا حتى لو انتهينا، فإن قبورنا ستهتز وتزحف بحجارتها صوب وجوههم تلعنها.

مشهد

توقفت منذ ليلة أمس عن مشاهدة الحرب، لم يعد بوسعي تحمل خروج الأطفال من بيوتهم وألعابهم وأحضان أمهاتهم إلى المقابر.
لم يعد بوسعي تقبل أن الأب لم يعد موجوداً لدفع فاتورة الماء أو معاينة من سيأتي لطلب يد ابنته، أو أنّ الأم لن تصحو مبكراً كعادتها لتحضير حقائب الصغار ووجبات الزعتر واللبنة قبل السابعة صباحاً.
ولا هدوء الأزقة بعد ضجيجها لسنوات طويلة بفعل سهرات العاطلين عن العمل.
وليس لي بندقية!
سأجمع كل هذا الحزن في قلبي، أُمارس طقوسه وحدي، كالكفَّ عن شرب القهوة قبل منتصف الليل بقليل والنوم مبكراً، أو البكاء بعد منتصف الليل بقليل بعد إحساسٍ مخيف يتسرب إليّ بأن هناك شهداء كُثر هذه الليلة.
لن أتابع الحرب، ولن أحصي خسارة أو ربح أحد، ولن أحمل أحداً المسؤولية ولن أصفق لأحد، لن أشتم أحداً، أكره سيارات الإسعاف، وتحول الناس في دقائق إلى سجلات.
أخطف ما تملكني وأصعد به الى جبلٍ قريب، إلى الطبيعة التي لم يُدنسها شيء بعد، وهناك سيكفيني الشاي مع الميرمية لأشعر أني أحب البلاد أكثر.

مشهد

لم يغضب أحد إلى الآن يا غزة، من لا يغضب على شهيدٍ واحد لن يغضب على ألف شهيد.

مشهد

أيتها الحرب رُدّي ما كان وعليكِ السلام، طفلاً طفلا، صديقاً صديقا، امرأةً امرأة، شجرةً شجرة...
أيتها الحرب: عودي ديارك.

مشهد

أين النحلة التي كانت تستطيب مذاق ورد النوافذ؟ أين النوافذ؟ أين من كانوا يشقون عن صدرها الستائر؟ أين البيت أيتها الحرب؟

مشهد

أستشهد أخي
من سيأتيني بأخٍ يحملُ نظرة عيونه، وبؤسه.
استشهدت العائلة
يا إلهي من سيمشي معي لبيت الصبية
استشهدت الحارة
من سيقنعني الآن أن أنسى ثلاثين عاماً؟ من يعيدني صغيراً؟
ويخلق لي أصدقاء طفولة، أو أعداء طفولة.
استشهد أبي
وظلَ يا أمي ظِلُهُ يحوم حول البيت، يحميه، ظلهُ الذي لا يراه
زورانا ولا أعداؤنا، نحن فقط.
نحن الذين قلنا له: لا تدع شيئاً يميتك يا أبي حتى لو كان الموت
ذاته.
ألا تشعرين يا أمي بطول يديه؟ وكيف تمتد فوق سطحنا، وخلف
البيت، وكيف يتشكل كاملاً بهياً جاداً على بابنا.
وكيف سيرقص في زفاف أخي الصيف المقبل، لقد اشترى ملابس
وعطرا ودعا أصدقاءه إلى فرحنا..
بالأمس فقط، طلب أن نُحضر القهوة من المطحنة التي يعشقها.
واشتريت له ما يكفيه لعمرين، ليت القهوة تستجدي معنا عودته.
غداً يُطل يا أمي، لا تسأليني كيف؟ ولا من أين؟ غداً يُطل كما يطل
في وجوهنا الجبل الشرقي كل صباح... غداً يأتي، غداً يعود.
ويتأخر غداً.
ومات بالخطأ قط جارتنا سميحه، المرقط بالأبيض والأسود،
رآهُ عماد -الذي أستشهد ايضا شقيقه، وأسرته، وحارته- فنسيهم
وذكرني بأن القط أيضاً أصابته شظية.

مشهد

مراسلنا في السماء: الشهداء جميلون وبحالة جيدة، اطمئنوا .
الأطفال يلهون بشكلٍ رائع، وبات لديهم أصدقاء.
الأطفال الأربعة الذين كانوا يلهون على البحر قبل القذيفة، وجدوا هنا رملاً ألذ.
الكل هنا بخير، حتى الجدة التي كانت تحتمي ببيت درجها، الآن تصعد كل الأدراج هنا، ولا تخاف شيئاً، إنها تبتسم طيلة الوقت.
والعائلات، كل العائلات اجتمعت من جديد، ربما اعتقدتم أنها تفرقت، لكن هل من شيء يُفرّق بعد أن يكون الدم هو الجامع؟

مشهد

لا داعيَ أيتها المشافي والمراكز الطبية قليلة الحيلة لثلاجات موتى أخرى، كل الأرض تصلح ليستريحوا أخيراً على أكتافهم.
لا يَهُمُ الكفن، غطوه بورق الزيتون.

مشهد

صار بإمكان غزة أن تُبدل كُل أسماء شوارع المدن العربية، لأسماء شهداء.
وربما تفيضُ قليلاً، تفيض بأسماء شهدائها لشوارع أخرى لم تُشق بعد!

مشهد

في ثلاجة الموتى جثة الشهيد لا تبرد أبداً، مُد يدك إن لم تصدقني -فالشعراء يكذبون- مُد يدك لترَ كم تغلي. في غزة لا تُسمها ثلاجة الموتى، سَمِها ثلاجة الشهداء، ثلاجة الكرامة.

مشهد

كل مدن العالم تلفظها من فمك للخارج، مبعثراً أحرفها في الهواء..
إلا غزة
تلفظها للداخل، تهبط لقلبك شهداء، وتتناثر بكَ كرامة.

مشهد

لدي حساسية مفرطة من هدم البيوت، تقلقني أكثر من أعداد الشهداء.
فالبيوت أيضاً أرواح. ودوماً أكره الذين يبيعون بيوتهم أو ينتقلون لبيوتٍ جديدة أكثر رفاهية.
قد أكره كل المحيطين بي لكني أبداً لن أكره بيتي - مهما ضاق- وقد لا يكون النوم فيه مريحاً، أو حتى الصحو! وربما ليس جميلاً إلا في عيني. لكنها رائحة الأشياء، أنفاسي التي نثرتها هنا وتكاثرت معها وازداد فيها طول
بكائي على الحائط الغربي من الغرفة - كلما اشتد وجعٌ ما- البيوت الجديدة لا شهوة للبكاء فيها.
وأنتِ أيتها الطائرة: دعي بيتي لي. فأنا لم أمت بعد، ما زلتُ أحلم بين شقوقه.

مشهد

لو كنتُ في غزة، وأبي ميت منذ زمن، واتصل بنا الجيش لإخلاء البيت خلال ١٠ دقائق، أو أطلق صاروخاً صغيراً تحذيرياً. لن أُخرِجَ منه إلا صورة أبي... بعشرات السنوات التي شقي وتعب فيها لبنائه، سنوات كده وعرقه ليراه منتصباً، سنوات حلمه وآماله... سأتركهم يدمرون ويحرقون كل شيء، إلا صورة أبي. سنبنيه ثانيةً من ظلال الصورة.

مشهد

الأب ضروري في الحرب، ليس بجسده، جسده لن يمنع رصاصة من أن تخترق النافذة فتعلقُ بكتف شقيقي، أو قذيفة لا تدق الباب فتجمع العائلة التي لا تجتمع إلا نادراً ولدقائق، تجمعهم أشلاء فوق بعضها حتى القيامة.

الأب ضروري ليُصبح صوت الرصاص أقل رعباً، إنه لا يُخيف كما لو كنا وحدنا، وصوت القذيفة الآتية أقل فتكاً، فنشعر أنها لن تقوى على السقوط بيننا، لن تُصيب أيّاً منا بسوء، فأبي هنا يشرب قهوته الباردة، ومثلنا يراقب الحرب.

وضروري لأن يقول لي: لا تخرج الآن من البيت؛ لأني لا أملك حَدس الطمأنينة والقلق مثله.

وضروري في الحب حين نكون عشاقاً صغارا، دون أن نخبره أننا على وشك الوقوع -أو وقعنا- به. وقد يمتد عشقنا وتورطنا سنين طويلة دون أن يُلاحظ ذلك، لكنه ضروري، ضروري لأن نُخفي عنه توترنا وارتباكنا ونكدنا وضعفنا وقوتنا وفشلنا ونجاحنا... ضروري جداً حتى لو كان صامتاً أو قاسياً.

مشهد

«عزيزي الشهيد: أعتذر عن تصحيح ورقتك، فنحن لا نصحح للشهداء. بل هم الذين يصححون لنا»، هذا ما كتبه الأستاذ سامي عكيله على ورقة امتحان مدخل إلى العلاقات العامة للطالب فارس اسبيتة، والذي صار فيما بعد، بعد وقتٍ قصير، شهيداً، فالشهادة في غزة لا تأخذ وقتاً طويلاً، وكانت تُرمى في الحرب كـَ «السلام»، يصل طفل أو زوجين أو عائلة كاملة، وربما حي كامل، كالشجاعية والزيتون. وشكلت الأرقام على ورقة الامتحان تسلسلاً جميلاً كاستشهاد في آذار، وقت الامتحان ٨-٩، تاريخ الامتحان ١٠-١١-٢٠١٢.

مشهد

لم تعد تكفينا أسماؤهم، نريد قصصهم أيضاً، حكاية كل شهيد ولو كانت من سطرين، حتى لمن استشهد جنيناً في بطن أمه؛ له أيضا حياته وحكايته.

حكاية كل بيت، لم يعد بيتاً، كل شارع قصفت فيه شجرة، كل قطعة أثاث احترقت، كل ملعقة خسرناها بين الركام، كل ذكرى كانت... كل لمسة هواء كانت في طريقها لصدر الشهيد، تلفحه، تبرده، تنعشه، تضايقه.

مشهد

ماذا عن الذين تعرضوا للإعاقة في الحرب الأخيرة على غزة والحروب التي سبقتها؟ أولئك الذين وقعوا في المنتصف بين الشهداء والجرحى، فكانوا الأكثر إيلاماً!

لماذا لا يأتي أحد على سيرة ما صاروا عليه؟ من فقد يده، قدمه، عموده الفقري، نصف جسده، أو أكثر من ذلك، إنهم بعشرات المئات... من يُنقذهم؟ من يخرج منهم بقايا الشظايا النفسية قبل الملموسة؟

قضيتهم ليست بحاجة لتقارير تلفزيونية ضخمة، أو موجة إذاعية مفتوحة، أو مقالات مفصلة بأسمائهم وأعمارهم وأشكالهم الجديدة، الناقصة عضواً الزائدة كرامةً، ولا حتى خطابات النصر القريبة والبعيدة، التي تصدح هنا وهناك.

ولا قضية شيك بأربعمائة أو ألف دولار أمريكي، ليست قضية تعويض! فهي ليست هلعاً أو رعباً من قذيفة سقطت جانباً، بل من قذيفة ارتطمت بهم، بأجسادهم النحيلة والهزيلة أصلاً.

ومن كان يصعد الدرج وحده لن يفيدك أن تسأله: كيف تطلع الدرجات الآن؟

فقط بإمكانك أن تتخيل الموقف بأكمله كوب ماء فارغ وعليكِ تعبئته لتشرب، لتطفئ عطشك! فهل تقدر؟ إنه الماء الوسيلة الأولى للحياة.

أو أعطيك مثالاً أقل من ذلك بقليل، طفلة فقدت أصابعها وأتوا لها بألعاب كثيرة وجميلة، ثمة مفتاح للعبة وعليها أن تديره هي، هيّ المبتورة أصابعها، وما ذنبها أن ترى اللعبة تتحرك وترقص وتغني وتهز أطرافها بينما تجلس هي بكل حواسها لا تحرك إصبعاً واحداً، لا تُشير لشيء.

مشهد

لدي ألف صديق وصديقة من غزة، لا أريد لأحد منكم أن يستشهد. سيكون عادياً أن تُصابوا بكسرٍ خفيف في الرقبة أو القدم، لكن لا تستشهدوا الآن. وسيكون مؤلماً أن يُهدم بيت أحدكم، لكن لا تدعوني أفقد أحدكم، أعلم أني لم ألتقِ بأحدٍ منكم، وبالكاد نتحدث على الفيسبوك.. وربما لن نلتقي يوماً؛ لأنّ غزة الآن أبعد بقعة جغرافية عن الضفة الغربية. لكننا نستنشق ذات الهواء، فلا تتركوا حصتكم لي.

على الطائرات ألا تخطئ حتى لو قررت الخطأ، وألا تُصيبكم بسوء حتى لو شاءت ذلك، وألا ينفجر الصاروخ الذي سقط بقرب أحدكم لعطل فني، أريدكم جميعاً على الأقل لعامٍ آخر، لصباحٍ آخر.

مشهد

على الفلسطيني الواحد أن يموت واحداً واحداً، وأن يُعيد المشهد دون أن يُرعب قطة للأعداء، وأن لا يطالبَ بقبر جميل، أو وردة. هذا الكائن الغريب، القاتم، الغول، عليه أن يموت مصعوقاً بكهرباء سياج مستوطنة دون أن يؤذي السياج، وأن يموت في مطارٍ أجنبي دون أن يسيء للمنفى، وأن يموت طحناً تحت عجلات قطارٍ، دون أن يؤخر العالم دقيقةً واحدة.

وأن يموت ليتفاجأ العالم أن الفلسطيني يموت، وهذا ما لم يحدث إلى الآن.

مشهد

لا تُجربوا معنا كثيراً، ولا حتى بالقتل، غداً يعود الحمام إلى عشه الأول، وإن كان الطقس مُغبراً وقاسيا.. غداً يعود الحمام، غداً نعود.

لأننا ببساطة، أبناء هذا المكان، حتى اسألوا من يحمل منذ سبعين عاما مفتاح قُنَ دجاجه فوق سطح بيته الذي لم يعد قائما، اسألوهم واحدا واحدا، في لبنان وسوريا والأردن والعالم، قبل أن يفتحوا أفواههم ليجيبوا، ستتجه عيونهم صوب فلسطين.